الجزء الثالث والعشرون

وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ (٢٨) إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ (٢٩) يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٣٠) أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ (٣١) وَإِنْ كُلٌّ لَمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ (٣٢) .

بسم الله الرحمن الرحيم

شرح المفردات

الجند : العسكر ، والمراد بهم الجند من الملائكة ، والخمود : انطفاء النار ؛ والمقصود به الموت ، والحسرة على ماقال الراغب : الغم على مافات، والندم عليه ؛ كأنّ المتحسر انحسرت عنه قواه من فرط الإعياء ، وإنْ : بمعنى ما ، ولما : بمعنى إلا ، محضرون : أى للحساب والجزاء .

المعنى الجملى

تقدم أن قلنا غير مرة : إن تقسيم الكتاب الكريم إلى الأجزاء الثلاثين لوحظ فيه المدّ اللفظى لا الاتصال المعنوى ، إذ كثيراً ما تكون بداءة الجزء فى أثناء القصة الواحدة كما هنا ، فإنه بعد أن بين حال الناصح الشهيد ودخوله الجنة ـ أردف ذلك بذكر حال المتخلفين المخالفين له ، ثم ذكر سنة الله فى أمثالهم فى العذاب الدنيوى ثم هم يُرَدُّون إلى ربهم فيعذبهم فى الآخرة .

الإيضاح

(وما أنزلنا على قومه من بعده من جند من السماء وما كنا منزلين) أى وما أنزلنا على قوم هـذا المؤمن الذى قتلوه لدعائه إياهم إلى الله ونصيحته لهم ـ من بعد مهلكه جنداً من الملائكة ، بل كان الأمر أيسر من ذلك .

و إجمال المعنى : إنه انتقم من قومه بعد قتلهم إياه غضباً منه تبارك وتعالى ، لأنهم كذبوا رسله وقتلوا وليه ، وما كاثرهم سبحانه بالجنود و إنزال الملائكة ، بل كان أمرهم أهون من ذلك ، إذ ليس من سنته أن يكون عذاب الاستئصال بجند كثير من السماء .

ثم بين ما كان من هلاكهم بقوله :

(إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم خامدون) أى ما كان هلاكهم إلا بصيحة واحدة فإذا هم أموات لاحراك بهم ، قد ذهبت منهم حرارة الحياة كما تذهب حرارة النار حين الخمود .

وفى هذا إيماء إلى أن الحى كشعلة النار ، والميت كالرماد ، و إلى هـذا يشير لبيد :

وما المرء إلا كالشهاب وضوئه يحور رماداً بعد إذ هو ساطع

ويقول أبو العلاء :

وكالنـــار الحياة فمن رماد أواخرها وأولهـــا دخان

ولم يذكر لنا الكتاب الكريم كيف كانت الصيحة ولا كيف نزل بهم العذاب ، وتفصيل ذلك لا يعنينا ، فالعبرة تحصل بدون بيانه ، إذ المراد انتقام الله وعذابه لمن كذب أولياءه على أى نحوٍ كان ذلك العذاب .

وفى هذا ما لا يخفى من تهوين أمرهم وتحقير شأنهم وتفخيم شأن رسل الله .

(يا حسرة على العبـاد) المراد بالعباد هنا مكذبو الرسل ، أى يا حسرتهم وندامتهم يوم القيامة إذا عاينوا العذاب على تكذيبهم رسل الله ومخالفة أوامره .

ثم بين سبب الحسرة والندامة فقال :

(ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون) أى ماجاءهم رسول إلا استهزءوا به وكذبوه وجحدوا ما أرسل به من الحق .

والخلاصة : إن المستهزئين بالناصحين المخلصين المنوط بنصحهم خير الدارين ، جديرون أن يتحسروا على أنفسهم ، إذ فوّتوا عليها السعادة الأبدية وعرّضوها لعذاب مقيم ، وكأنه قيل : يا حسرة احضرى ، فهذه شدة لاسبيل للخلاص منها .

ولما بين حال الأولين نبه الحاضرين فقال :

(ألم يروا كم أهلكنا قبلهم من القرون أنهم إليهم لايرجعون ؟) أى ألم يعتبروا بمن أهلك الله قبلهم من المكذبين للرسل كعاد وثمود ، وأنهم لا رجعة لهم إلى الدنيا كما يعتقد الدَّهْرِيَّة ، جهلا منهم بأنهم يعودون إليها كما كانوا .

وبعد أن ذكر أنه أهلكهم وبين طريق ذلك ، أعقب هذا بأن لهم حساباً وعقاباً فقال :

(وإن كل لما جميع لدينا محضرون) أى وإن جميع الأمم ماضيها وحاضرها

وآنها ستحضر يوم القيامة بين يدى الله فيجازيهم بأعمالهم خيرها وشرها ، ولو أن من أهلك ترك لكان الموت راحة له ، وما أحسن قوله :

ولو أنا إذا متنا تركنـــا لكان الموت راحة كل حىّ
ولكنا إذا متنا بعثنـــا ونُسأل بعـده عن كل شىّ

ونحو الآية قوله : « وَإِنْ كُلًّا لَمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ » .

والخلاصـة — إن الناس يجمعون للحساب والجزاء ويوفى كل عامل جزاء عمله من خير أو شر .

وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ (٣٣) وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ (٣٤) لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ (٣٥) سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ (٣٦) .

المعنى الجملى

بعد أن بين سبحانه أن العباد كلهم محضرون إليه يوم القيامة للحساب والجزاء على ما قدموا من عمل ـ أردف ذلك بما يدل على أن البعث ممكن وليس بمستحيل ، وآية ذلك أن الأرض الميتـة إذا نزل عليها المطر تحيا وتنبت من كل زوج بهيج ، ثم ذكر أنه كان يجب عليهم شكران هـذه النعم بعبادة خالقها وترك عبادة غيره مما لا يجديهم نفعاً ولا يدفع عنهم ضراً .

الإيضاح

(وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حبًّا فمنه يأكلون) أى ومن الأدلة على قدرتنا على البعث إحياء الأرض الهامدة التى لانبات فيها بإنزالنا الماء عليها فإذا نزل اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ، فأخرجت الحب الذى هو قوت لكم ولأنعامكم و به قِوام حياتكم .

(وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب ، وفجرنا فيها من العيون ليأكلوا من ثمره وما عملته أيديهم) أى وأنشأنا فى هذه الأرض التى أحييناها بساتين من نخيل وأعناب ، وجعلنا فيها أنهاراً سارحة فى أمكنة تنتشر فيها ، ليأكلوا من ثمر الجنات ومما عملت أيديهم مما غرسوا وزرعوا .

ثم لما عدد النعم طلب منهم الشكر فقال :

(أفلا يشكرون ؟) أى أفلا يشكر هؤلاء القوم على ما أنعم به عليهم من هذه النعم التى لا تعدّ ولا تحصى .

ولما أمرهم سبحانه بالشكر ، وشكرُه تعالى بعبادته وقد تركوها وعبدوا غيره وأشركوا به سواه قال :

(سبحان الذى خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لايعلمون) أى تنزيهاً لمن خلق هذه الأنواع كلها من الزرع والثمار ومختلف النبات ، وخلق من أولادهم ذكوراً وإناثاً ، وخلق مما لايعلمون من الأشياء التى لم يطلعهم عليها ولم يجعل لهم طريقاً إلى معرفتها تفصيلا ، بل علمهم ذلك بطريق الإجمال بنحو قوله : « وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ » ليستدلوا بذلك على عظمة الخالق وسعة ملكه وجلالة قدره .

والخلاصة — تنزه ربنا خالق هـذا الخلق العظيم من نبات وحيوان وإنسان عن كل نقص ، وخالق ما لا نعلم من خلق ولا ندرك كنهه ولا نعلم حقيقته مما هو دليل على عظيم ملكه وواسع قدرته .

وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَاهُمْ مُظْلِمُونَ (٣٧) وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٣٨) وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ (٣٩) لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (٤٠) .

شرح المفردات

أصل السلخ : كشط الجلد عن الشاة ونحوها ؛ واستعمل هنا فى كشف الضوء من مكان الليل وموضع إلقاء ظله ، مظلمون : أى داخلون فى الظلام ، لمستقر لها : أى حول مستقر لها وهو مركز مدارها ، وقدّرناه : أى صيرنا مسيره فى منازل ، والمنازل واحدها منزل : وهو المسافة التى يقطعها القمر فى يوم وليلة ، عاد : أى صار فى أواخر سيره وقربه من الشمس كالعرجون فى رأى العين ، والعرجون : هو العود الذى عليه الشماريخ ، فإذا أتى عليه الحول تقوس ودقّ واصفرّ .

قال أعشى بنى قيس :

شرق المسكُ والعَبيرُ بها فهى صفراء كعُرْجون القمر

ينبغى لها : أى لا يتيسر لها ، أن تدرك القمر : أى تجتمع معه فى وقت واحد فتداخله وتطمس نوره ، لأن لكل منهما دورة خاصة فى فلكه سيأتى ذكرها بعد ، والفلك : مجرى الكواكب ، سمى بذلك لاستدارته ، والسباحة الجرى فى الماء للسمك ونحوه ، ثم استعمل فى سير الكوكب فى الفضاء فى مداره الخاص .

المعنى الجملى

بعد أن استدل على إمكان البعث والنشور بأحوال الأرض وما يطرأ عليها من تغير مما هو دليل القدرة الشاملة ـ أردف ذلك بذكر أحوال الأزمنة من اختلاف الليل والنهار وجريان الشمس والقمر والأجرام السماوية ، وهى مخلوقات عظيمة واقعة تحت قبضته يتصرف فيها بعظيم سلطانه .

الإيضاح

(وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون) أى ومن آيات قدرته الدالة على إمكان البعث والحشر والنشر ، وعلى قدرته على فعل كل ما يشاء : الليل ينزع عنه النهار فتأتى الظلمة ويذهب النهار ، فإذا الخلق قد صاروا فى ظلمة بمجىء الليل الذى كان الضياء ساتراً له .

وفى الضياء سرور ولذة وراحة للنفس وسعى على الرزق ، وفى زواله وحشة وانقباض تشعر بألمه النفوس ؛ كما أن فيه تركا للعمل الذى به قِوام الحياة ، ومن ثم جعل الآية ظهور الليل ولم يجعلها مجىء النهار ، والآية تحصل بكل منهما .

والخلاصة — إن تعاقب الليل والنهار على ظهر البسيطة من أكبر الأدلة على قدرة المولى سبحانه ، وفيه عبرة لمن يعى ويفهم ، وإن البعث والنشور من أيسر الأمور عليه سبحانه .

(والشمس تجرى لمستقرلها ذلك تقدير العزيز العليم) أى والشمس تجرى حول مركز مدارها الثابت الذى تسير حوله على حسب وضعها النجمى ، فقد ثبت أن لها حركة رحوية حول هذا المركز تقدّر بمائتى ميل فى الثانية ، وهذا الوضع العجيب من تقدير العزيز القاهر لعباده القابض على زمام مخلوقاته ، العليم بأحوالها الذى لا تخفى عليه خافية من أمرها .

(والقمر قدرناه منازل) أى وجعلنا لسير القمر منازل ، وهى ثمانية وعشرون منزلا ينزل فى واحد منها كل ليلة ثم يستتر ليلتين أو ليلة إذا نقص الشهر ، فإذا كان فى آخر منازله دقّ وتقوس ، وهذا مايشير إليه قوله :

(حتى عاد كالعرجون القديم) أى يسير فى منازله إلى آخرها حتى يدقّ ويتقوس ويصفر ويكون كالعود الذى عليه الشماريخ إذا أتى عليه الحول .

(لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر) أى لايصح للشمس ولا يسهل لها أن تدرك القمر فى سرعة سـيره ، لأن الشمس تجرى مقدار درجة فى اليوم ، والقمر يسير مقـدار ١٣ درجة فى اليوم ، ولأن لكل منهما مداراً خاصاً لا يجتمع مع الآخر فيه .

(ولا الليل سابق النهار) أى ولا تسبق آية الليل وهى القمر ، آية النهار وهى الشمس فيحل سلطانه محلها ، إذ أنهما يجريان بحساب منتظم لايتغير ولا يتبدل .

(وكل فى فلك يسبحون) أى وكل من : الأرض والشمس والقمر يسبح فى فلكه كما يسبح السمك فى المـاء ، فالشمس تجرى فى مدارها ، والأرض تجرى حول الشمس فى سـنة وحول نفسها فى يوم وليـلة ، والقمر يجرى حول الأرض كل شهر .

وعلماء الفلك قديماً جعلوا الـكواكب مركوزة فى الأفلاك على ما نراه فى كتبهم فليس للـكوكب أن يسبح من تلقاء نفسه ، بل لابد له من حامل يحمله وهو الذى يدور به ، وكيف يسبح ما لاحرية له ولا قدرة له على السير بل هو محمول على غيره ؟ هكذا كان الرأى عندهم ، ولـكن رأى علماء الفلك المحدثين : أن جميع الـكواكب تسير فى مدارات فى عالم الأثير ، فهى إذاً كأنها سمك فى بحر لجىّ .

فاعجب أيها القارئ الـكريم للقرآن كيف أثبت مادل على صحته الـكشف

الحديث ودحض تلك الآراء التى كانت شائعة عصر التنزيل لدى علماء الفلك من اليونان والهند والصين .

وقد طلبت إلى الأستاذ عبد الحميد سماحة وكيل المرصد الفلكى المصرى بحلوان أن يدلى إلىَّ بما أثبته علماء الفلك حديثاً فى النظريات التى تضمنتها الآيات ، فكتب إلىَّ مايلى :

الآية الأولى

من آيات الله وبديع صنعه تعاقب الليل والنهار دائبين . وقد جاء ذكر ذلك مرارا فى القرآن الكريم لما لهذه الظاهرة الفلكية من الأهمية العظمى فى حياة الجنس البشرى وكافة الأحياء التى على ظهر البسيطة ، فهى من الأمور الجديرة بالتفكير للاستدلال بها على عظمة الخالق جل شأنه ؛ فالليل يسلخ من النهار والنهار يسلخ من الليل ، نتيجة لدوران الأرض حول محورها من الغرب إلى الشرق ، فتشرق الشمس على بعض الآفاق ، وتغيب عن البعض الآخر بانتظام تام بديع .

الآية الثانيـــة

وزيادة على دوران الشمس الظاهرى وسط النجوم الناشئ عن دوران الأرض حول الشمس مرة فى السنة ـ ثبت لدى العلماء أخيرا أن للشمس حركتين أخريين حقيقيتين :

إحداهما حول محورها مرة فى كل ست وعشرين يوما تقريبا وتدل عليها أرصاد كلف الشمس ؛ وهى نقط سوداء تظهر على سطحها بين حين وآخر ، وتتغير مواقعها بالنسبة إلى السطح وتقطع المسافة بين حافتى القرص فى زمن قدره ١٣ يوما .

ثانيتهما : دوران الشمس (ومن حولها توابعها الكواكب السيارة وأقمارها) حول مركز النظام النجومى بسرعة تقدر بنحو مائتى ميل فى الثانية ، فالشمس

واحدة من ملايين النجوم التى تكوّن النظام النجومى ، والذى ثبت أنه يدور حول مركزه ، ونظرا لأن الشمس لا تقع عند مركزه فإن لها حركة دورانية .

والذى يفهمه الفلكى أو الرياضى من المستقر لجسم متحرك حركة دورانية ، أنه المحور الثابت الذى تكون الحركة حوله ، أو مركز المدار الدائرى لهذه الحركة ، ففى الحالة الأولى يكون المستقر هو الخط الواصل بين قطبى الشمس ، وفى الحالة الثانية : يكون هو مركز النظام النجومى بأسره ، الذى تدور حوله الشمس وكافة النجوم الأخرى .

و إذا علمنا أن هاتين الحركتين الحقيقيتين للشمس لم تثبتا بالبرهان العلمى والأرصاد الفلكية إلا حديثا أدركنا ما فى هذه الآية الكريمة من إعجاز عظيم .

الآية الثالثة

قسم الفلكيون القدماء النجوم التى تقع حول مدار القمر ثمانيا وعشرين مجموعة تسمى منازل القمر ، وقد جاء ذكرها هنا وفى آيات أخرى كقوله تعالى « هُوَ الَّذِى جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ » .

ولما كانت الشمس تنتقل باستمرار وسط النجوم ، فتحجب عن الرؤية كل النجوم ومجموعات النجوم التى تكون موجودة فوق الأفق نهارا ، نجد أن ما يكون موجودا من منازل القمر فوق الأفق ليلا يتغير تدريجا من ليلة إلى أخرى ، ومن شهر إلى آخر ، وهكذا نجد فى معرفة مواقع القمر بالنسبة لهذه المنازل وسيلة لحساب الأوقات .

وقد كان العرب يعرفون بها الأنواء ويقيسون بالنسبة إليها مواقع الكواكب السيارة والشمس ، وأسماؤها هى : الشَّرَطان ، البُطَين ، الثريا ، الدَّبَرَان ، الهَقْعَة ،

الهَنْعَة ، الذراع المبسوطة ، الثُّنْرَة ، الطرف ، جبهة الأسد ، الزُّبْرَة ، الصَّرْفَة ، العوّا ، السماك الأعزل ، الغفر ، الزُّبانا ، الإكليل ، قلب العقرب ، الشَّوْلة ، النعائم ، البلدة ، سعد الذابح ، سعد بُلَع ، سعد السعود ، سعد الأخبية ، الفَرْعُ المقدم ، الفرع المؤخر ، الرِّشاء أو بطن الحوت .

و بعد أن يتم القمر دورته فى مداره متنقلا بين منازله هذه يعود كما بدأ هلالا صغيرا مقوسا فى بادئ الشهر ، و يرى فى ضوء الشفق بعد مغيب الشمس ، ويكون لونه مصفرا كعُرجون النخل ، لأن مركبات ضوئه الأخرى تشتت فى الطبقة الهوائية قبل وصولها إلى عين الراصد ، كما نرى لون الشمس مصفرا حين الشروق ، أو حين الغروب .

الآية الرابعة

المقصود هنا أن الله سبحانه بديع السموات والأرض جعل لكل من الشمس والقمر مدارا مستقلا يسبح فيه ، فلا يحجب أحدهما ضوء الآخر إلا نادرا حين ما يحدث كسوف الشمس أو خسوف القمر .

فالشمس كما ذكرنا تدور حول الأرض فى حركة ظاهرية تنشأ عن دوران الأرض حولها ، وهى تشبه ما يبدو للمسافر فى القطار من حركة الأشجار وأعمدة التلغراف والقرى دون أن يحس بحركته المكتسبة من وجوده فى القطار . وهكذا تتحرك الشمس وسط النجوم فى مدار واسع نسبياً ، نصف قطره ٩٣ مليون ميل وتتم دورة كاملة فى زمن مقداره سنة ، ويدل على هذه الحركة تنقلها وسط البروج بمعدّل برج فى كل شهر أو درجة واحدة تقريبا فى كل يوم .

أما القمر فمداره حول الأرض أصغر نسبياً ، ويقدر طول نصف قطر مداره بحوالى ٢٤ ألف ميل يقطعه فى شهر ، أى بمعدل منزل فى كل يوم أو ١٣ درجة

فى اليوم ، وحركته حول الأرض حركة حقيقية ، ويمكن ملاحظتها بسهولة من مراقبة موقعه بين النجوم ليلة بعد أخرى .

وفضلا عن ذلك فالمداران السالفا الذكر ليسا فى مستوى واحد ، بل يميل أحدهما على الآخر ، ولولا ذلك لتكرر كل من الكسوف والخسوف مرة فى كل شهر ، وهكذا يتبين كيف إن لكل من : الشمس والقمر فلكا أو مدارا مستقلا يسبح فيه اهـ .

وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (٤١) وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ (٤٢) وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنْقَذُونَ (٤٣) إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ (٤٤) .

شرح المفردات

الذرية : أصلها صغار الأولاد ، ثم استعملت فى الصغار والكبار ، ويقع على الواحد والجمع ؛ وهى من ذرأ الله الخلق فتركت همزته نحو برية ، الفلك : السفينة ، المشحون : المملوء ، ما يركبون : هى الإبل فإنها سفائن البر لكثرة ما تحمل ، فلا صريخ : أى فلا مغيث لهم يحفظهم من الغرق .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه على سبيل المنة على عباده أنه أحيا الأرض وهى مكان الحيوان ـ أردف ذلك بذكر نعمة أخرى على الإنسان ، وهى أنه جعل له طريقا يتخذه فى البحر ويسير فيه كما يسير فى البر جلبا لأرزاقه وتحصيلا لأقواته من أقاصى البلاد فى أنحاء المعمورة .

الإيضاح

(وآية لهم أنا حملنا ذريتهم فى الفلك المشحون) أى ومن آيات قدرته الدالة على رحمته بعباده أن جعل أولادهم يركبون السفن الموقرة بسائر السلع التى ينقلونها من بلد إلى آخر ليستفيدوا مما تحمله من الأقوات وسائر حاجهم المعيشية ، ولولا ذلك لما بقى للآدمى نسل ولا عقب من بعده .

ونحو الآية قوله : « أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِى فِى الْبَحْرِ بِنِعْمَةِ اللهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِى ذٰلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ » .

(وخلقنا لهم من مثله ما يركبون) أى وخلقنا من مثل تلك السفن البحرية سفناً برية ، وهى الإبل التى تسير فى الصحارى كما قال شاعرهم :

* سفائن برّ والسرابُ بحارها *

ونحوها قطر السكك الحديدية والسفن الهوائية من مطاود وطائرات تسير فى الجوّ حاملة للناس السلع المختلفة والذخائر الحربية ، ومن جرّاء هذا لم يعين الكتاب الكريم ما يركبون لما سيظهر فى عالم الوجود مما هو مخبأ فى صحيفة الغيب ، وهذا من إعجاز الكتاب الكريم .

ونحو الآية : « وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ، وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ » .

ثم ذكر لطفه بعباده حين ركوبهم تلك السفن فقال :

(وإن نشأ نغرقهم فلا صريخ لهم ولا هم ينقذون) أى وإن نشأ إغراقهم فى الماء مع ما حملته السفن والزوارق فلا مغيث لهم يحفظهم من الغرق وينجيهم من الموت ، ولكن رحمة منّا بهم وتمتيعا لهم إلى حين بلذات الحياة الدنيا أبقيناهم وحفظناهم من الغرق ، وإلى هنا أشار بقوله :

(إلا رحمة منا ومتاعا إلى حين) .

وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٤٥) وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ (٤٦) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٤٧) .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر أنهم أعرضوا عن النظر فى الآيات التى يشاهدونها فى الآفاق ـ أردف هذا بذكر إعراضهم عن الآيات المنزلة من عند ربهم مما فيه تحذيرهم بأن يحل بهم من المثلات مثل ما حل بمن قبلهم ، ثم أعقبه بذمهم على ترك الشفقة على خلق الله ، إذ قيل لهم أنفقوا فلم يفعلوا .

الإيضاح

(وإذا قيل لهم اتقوا ما بين أيديكم وما خلفكم لعلكم ترحمون) أى وإذا قيل لهؤلاء المكذبين بما نزل الله من الآيات : احذروا ما مضى بين أيديكم من نقم الله ومثلاته التى حلت بمن قبلكم من الأمم، وخافوا أن يحل بكم مثلها من جراء شرككم وتكذيبكم لرسوله ـ وما خلفكم أى وما بعد هلاككم مما أنتم قادمون عليه إن متم على كفركم الذى أنتم عليه ، لعل ربكم يرحمكم ويغفر لكم ما اجترحتم من السيئات ـ أعرضوا ونأوا ونكصوا على أعقابهم مستكبرين .

ثم بين أن الإعراض دَيْدَنهم وليس ببدع منهم فقال :

(وما تأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين) أى وما تجىء هؤلاء المشركين حجة من حجج الله الدالة على توحيده وتصديق رسوله إلا بادروا

بتكذيبها وأعرضوا عنها وتركوا النظر الصحيح المؤدى إلى الإيمان به ، ومعرفة صدق رسوله .

والخلاصة — إنه ما ظهرت لهم آية من الآيات الناطقة ببدائع صنع الله وسوابغ آلائه الموجبة للإقبال عليها والإيمان بها إلا أعرضوا عنها مكذبين مستهزئين ، ولم يكلفوا أنفسهم مشقة البحث فى صدقها والاستدلال بها على وحدانيته وصدق رسوله.

و بعد أن ذكر إعراضهم عن الخالق بين قسوتهم على المخلوقين فقال :

(و إذا قيل لهم أنفقوا مما رزقكم الله قال الذين كفروا للذين آمنوا أنطعم من لو يشاء الله أطعمه) أى و إذا أمروا بالإنفاق مما رزقهم الله على الفقراء والمحاويج من المسلمين قالوا لمن طلب منهم ذلك : لو شاء الله لأغناهم وأطعمهم من رزقه ، فنحن نوافق مشيئة الله فيهم .

وفى قوله : مما رزقكم الله ، ترغيب فى الإنفاق على نهج قوله : « وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْكَ » وتنبيه إلى عظيم جُرْمهم فى ترك الامتثال للأمر ، وذم لهم على ترك الشفقة على عباد الله .

و إجمال ذلك — إنهم لم يعظموا الخالق ولم يشفقوا على المخلوق .

ثم ذكر أنهم على شحهم و بخلهم عابوا الآمر على الإنفاق ووصفوه بالضلال البين الذى لاشبهة فيه فقال :

(إن أنتم إلا فى ضلال مبين) أى ما أنتم أيها القوم فى قيلكم لنا أنفقوا مما رزقكم الله على مساكينكم — إلا فى جور بيِّن و بعدٍ عن سبيل الرشاد لمن تأمل وتدبر .

وهذا معذرة البخلاء فى كل عصر ومصر ، إذ تراهم دائما يقولون : لانعطى من حرمه الله ، وتلك فرية منهم لأن الله أغنى بعض الخلق وأفقر بعضا ابتلاء منه لعباده ولأسباب نحن لانعلمها لابخلا منه وشحا ، وأمره الأغنياء بالإنفاق على الفقراء ليس

لحاجة منه إلى مالهم ، بل ليبلوهم ويرى أيمتثلون الأمر ويؤدون الواجب ، أم ينكصون على أعقابهم ويولون مدبرين ؟

ولا ينبغى لأحد أن يعترض على مشيئة ربه ، لأنه يجهل أسباب ما يشاهد ويرى فى الكون .

وَيَقُولُونَ مَتَى هٰذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٤٨) مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ (٤٩) فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَا إِلَى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ (٥٠) وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ (٥١) قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هٰذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمٰنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ (٥٢) إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ (٥٣) فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٥٤) .

شرح المفردات

متى هذا الوعد : أى متى يتحقق ويجىء ما وعدنا به ؟ ينظرون : أى ينتظرون صيحة واحدة : هى النفخة الأولى فى الصور ؛ بها يموت أهل الأرض جميعا ، ونفخ فى الصور : أى النفخة الثانية ، والأجداث : واحدها جدث (بفتحتين) القبر ، ينسلون : أى يسرعون ، والويل : الهلاك ، من مرقدنا : أى موتنا ، محضرون : أى للحساب والجزاء .

المعنى الجملى

بعد أن أمرهم بتقوى الله وخوّفهم من أن يحل بهم مثل ما حل بمن قبلهم من أمثلات — أعقب هذا بذكر إنكارهم ليوم البعث واستعجالهم له استهزاء به وسخرية

منه ، ثم أتبعه ببيان أنه حق لاشك فيه وأنه سيأتيهم بغتة من حيث لايشعرون ، و إذ ذاك يخرجون من قبورهم مسرعين إلى الداعى ثم ينادون بالويل والثبور وعظائم الأمور حين يرون العذاب و يقولون : من أخرجنا من قبورنا ؟ فيجابون بأن ربكم هو الذى قدّر هذا ووعدكم به على ألسنة رسله وسيوفى كل عامل جزاء عمله .

الإيضاح

(ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين) أى ويقولون استهزاء و إنكارا متى يحصل هـذا البعث الذى تهددوننا به تارة تصريحا وأخرى تلويحا ؟ إن كنتم صادقين فيما تقولون وتعدون .

والخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين من قِبل أنهم كانوا يتلون عليهم الآيات الدالة عليه ، الآمرة بالإيمان به .

فأجابهم ربهم :

(ما ينظرون إلا صيحة واحدة تأخذهم وهم يخصمون) أى ما ينتظرون بحلول العذاب إلا نفخة واحدة فى الصور ، بها يموت أهل الأرض جميعا تأخذهم بغتة وهم يتنازعون فى أمور معايشهم لايخطر ببالهم مجيئها .

ونحو الآية قوله : « فَأَخَذَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَايَشْعُرُونَ » .

روى ابن جرير عن ابن عمر قال : « لَيُنْفَخَنَّ فى الصور والنـاس فى طرقهم وأسواقهم ومجالسهم حتى إن الثوب ليكون بين الرجلين يتساومانه ، فما يرسله أحدهما من يده حتى ينفخ فى الصور فيصعق به وهى التى قال الله (ما ينظرون إلا صيحة واحدة تأخذهم وهم يخصمون) » .

وأخرج الشيخان عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لتقومَنَّ الساعةُ وقد نشر الرجلان ثوبهما بينهما فلا يتبايعانه ولا يطويانه ، ولتقومَنَّ

الساعةُ والرجل يليطُ حوضه فلا يسقى منه ، ولتقومن الساعة وقد انصرف الرجل بلبن لقحته فلا يَطْعَمُه ، ولتقومنّ الساعة وقد رفع أُكلته إلى فيه فلا يطعَمُها » .

ثم بين سرعة حدوثها وأنها كلمح البصر أو هى أقرب فقال :

(فلا يستطيعون توصية ولا إلى أهلهم يرجعون) أى فلا يستطيعون أن يوصوا فى أموالهم أحدا ، إذ لا يمهلون بذلك ، ولا يستطيع من كان منهم خارجا من أهله أن يرجع إليهم ، بل تبغتهم الصيحة فيموتون حيثما كانوا و يرجعون إلى ربهم .

ثم بين أنهم بعد أن يموتوا ينفخ فى الصور النفخة الثانية نفخة البعث من القبور فقال :

(ونفخ فى الصور فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون) أى ونفخ فى الصور نفخة ثانية للبعث والنشور ، والخروج من القبور ، فإذا هم جميعا يسرعون للقاء ربهم للحساب والجزاء .

ونحو الآية قوله : « يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ » .

ثم ذكر أنهم يعجبون حين يرون أنفسهم قد خرجوا من قبورهم للبعث ، كما حكى عنهم بقوله :

(قالوا ياويلنا من بعثنا من مرقدنا ؟) أى قالوا يا قومنا انظروا هلا كنا وتعجبوا منه ، من بعثنا من قبورنا بعد موتنا ؟ حينئذ يجيبهم المؤمنون فيقولون لهم :

(هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون) أى هذا الذى ترون ما وعد به الرحمن وصدق فى الإخبار به المرسلون الذين أتونا بوعد الله ووعيده .

وهم قد سألوا عن الفاعل للبعث وأجيبوا بالفعل تذكيرا لهم بكفرهم وتقريعا عليه مع تضمن ذلك الإشارة إلى الفاعل .

ثم بين سرعة بعثهم من القبور فقال :

(إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم جميع لدينا محضرون) أى ما كانت

إعادتهم أحياء بعد مماتهم إلا نفخة واحدة فإذا هم مجتمعون لدينا قد أُحْضِروا للعرض والحساب لم يتخلف منهم أحد .

ونحو الآية قوله : « فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ . فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ » وقوله : « وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ » .

ثم بين ما يكون فى ذلك اليوم من الحساب بالعدل والقسطاس فقال :

(فاليوم لاتظلم نفس شيئا ولا تجزون إلا ما كنتم تعملون) أى ففى هذا اليوم وهو يوم القيامة لاتبخس نفس جزاء ما عملت من خير أو شر ، ولا يحمل عليها وزر غيرها ، بل توفى كل نفس أجر ما عملت من صالح ، ولا تعاقب إلا بما اكتسبت من طالح ، جزاء وفاقا لما عملت فى الدنيا .

إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ (٥٥) هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ (٥٦) لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُمْ مَا يَدَّعُونَ (٥٧) سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ (٥٨) .

شرح المفردات

الشغل : الشأن الذى يصدّ المرء ويشغله عما سواه من شئونه وأحواله لأهميته لديه ، إما لأنه يحصّل مسرة كاملة أو مساءة عظيمة ، الفاكه : الطيب النفس الضحوك قاله أبو زيد ، والظلال : واحدها ظل وهو ضد الضِّحّ (ما تصيبه الشمس) والأرائك : واحدها أريكة ؛ وهى سرير منجّد مزين فى قبة أو فى بيت ، يدّعون : أى يطلبون .

المعنى الجملى

بعد أن بين سبحانه أن ذلك اليوم كائن لامحالة ، وأنه سيأتى بغتة من حيث لايشعر به أحد ، فما هو إلا صيحة واحدة فإذا الناس خارجون من قبورهم ينسلون ـ أردف ذلك ببيان ما أعده للمحسن والمسىء فى هذا اليوم من ثواب وعقاب ، ليكون فى ذلك ترغيب فى صالح الأعمال ، وترهيب من فعل الفجور واجتراح السيئات .

الإيضاح

(إن أصحاب الجنة اليوم فى شغل فاكهون) أى إن من يدخل الجنة يتمتع بنعيمها ولذاتها ، ويكون بذلك فى شغل عما سواه ، إذ يرى ما لاعين رأت ، ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، فأنى له أن يفكر فيما سواه ؟ وهو بذلك فرح مستبشر ضحوك السن هادئ النفس ، لايرى شيئا يغمه أو ينغص عليه حبوره وسروره .

ثم ذكر ما يكمل به تفكههم ويزيد فى سرورهم فقال :

(هم وأزواجهم فى ظلال على الأرائك متكئون) أى هم وأزواجهم فى ظل لايضْحَوْن لشمس ، لأنه لا شمس فيها (وألذ شىء لدى العربى أن يرى مكاناً فيه ظل ظليل وأنهار جارية وأشجار مورقة) وهم فيها متكئون على السرر عليها الحجال (الناموسيات) وهذا منتهى ما تسمو إليه النفوس من لذة لدى من نزل عليهم التنزيل .

وبعد أن ذكر ما لهم فيها من مجالس الأنس — ذكر ما يتمتعون به من مآكل ومشارب ولذات جسمانية وروحية فقال :

(لهم فيها فاكهة ولهم ما يدّعون) أى لهم فيها من الفواكه ما لذ وطاب مما تقرّ به أعينهم وتسرّ به نفوسهم كما هو شأن المترفين المنعمين فى الدنيا ، ولهم فوق ذلك كل ما يتمنون وتشتاق إليه نفوسهم ، قال أبو عبيدة : العرب تقول : ادّعِ علىّ ما شئت أى تمن علىّ وتقول فلان فى خير ما ادّعى أى خير ما تمنى .

ثم فسر الذى يدّعون بقوله :

(سلام قولا من رب رحيم) أى ذلك الذى يتمنونه هو التسليم من الله عليهم تعظيما لهم ، وهذا السلام يكون بوساطة الملائكة كما قال سبحانه : « وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ . سَلَامٌ عَلَيْكُمْ » .

والسلام أمان من كل مكروه ، ونيل لكل محبوب ، وذلك منتهى درجات النعيم الروحى والجسمانى الذى تصبو إليه النفوس فى دنياها وآخرتها ، فكأن هذا إجمال لما تقدم من اللذات التى فصلت فيما سلف .

وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ (٥٩) أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (٦٠) وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (٦١) وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ (٦٢) هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (٦٣) اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (٦٤) الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٦٥) وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ (٦٦) وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ (٦٧) وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ (٦٨) ؟

شرح المفردات

امتازوا : أى انفردوا وابتعدوا عن المؤمنين ، والعهد : الوصية وعرض ما فيه خير ومنفعة ، وعبادة الشيطان يراد بها عبادة غير الله من الآلهة الباطلة ، وأضيفت إلى

الشيطان لأنه الآمر بها والمزيّن لها ، والجِبلُّ : الجماعة العظيمة ، اصلوها : أى قاسوا حرها ، والختم على الأفواه : يراد به المنع من الكلام ، والطمس : إزالة الأثر بالمحو ، فاستبقوا الصراط : أى ابتدروا إلى الطريق المألوف لهم ، فأنى يبصرون : أى فكيف يبصرون الحق ، ويهتدون إليه ؟ والمسخ تحويل الصورة إلى صورة أخرى قبيحة ، على مكانتهم : أى فى أماكنهم حيث يجترحون القبائح ، ونعمره : أى نطل عمره ، ننكسه فى الخلق : أى نقلبه فيه فلا يزال ضعفه يتزايد ، وانتقاص بنيته يكثر ، بعكس ما كان عليه فى بدء أمره حتى يردّ إلى أرذل العمر .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر ما للمحسنين من نعيم واجتماع بالمحبين والإخوان والأزواج فى الجنات — أعقبه بذكر حال المجرمين وأنهم فى ذلك اليوم يطلب منهم التفرق وابتعاد بعضهم من بعض ، فيكون لهم عذابان : عذاب النار وعذاب الوحدة ، ولا عذاب فوق هذا ؛ ثم أردف هذا بأنه قد كان لهم مندوحة من كل هذا بما أرسل إليهم من الرسل الذين بلغوهم أوامر ربهم ونواهيه ، ومنها نهيهم عن اتباع خطوات الشيطان وعن اتباعه فيما يوسوس به ، ثم ذكر أنه كان لهم فيمن قبلهم من العظات ما فيه مزدجر لهم لو تذكروا ، لكنهم اتبعوا وساوسه فحل بهم من النكال والوبال ما رأوا آثاره بأعينهم فى الدنيا ، وفيه دليل على ما سيكون لهم فى العقبى ، ثم ذكر مآل أمرهم وأنهم سيصْلَوْن نار جهنم خالدين فيها أبدا بما اكتسبت أيديهم ، وهم فى هذا اليوم لا ينطقون بينت شفة ولا تقبل منهم معذرة ، بل تتكلم أيديهم بما عملت وتشهد أرجلهم بما اكتسبت ، ثم ذكر أنه رحمة منه بعباده لم يشأ أن يعاقبهم فى الدنيا بشديد العقوبات ، فلم يشأ أن يذهب أبصارهم حتى لو أرادوا الاستباق وسلوك الطريق الذى اعتادوا سلوكه ما قدروا ولا أبصروا ، ولم يشأ أن يمسخ صورهم ويجعلهم كالقردة والخنازير حتى لو أرادوا الذهاب إلى مقاصدهم ما استطاعوا ،

ولو أرادوا الرجوع ما قدروا ، ثم دفع معذرة أخرى ربما احتجوا بها وهى أن ما عمروه قليل ، ولو طال عمرهم لأحسنوا العمل واهتدوا إلى الحق ، فرد ذلك عليهم بأنهم كلما عُمِّرُوا فى السن ضعفوا عن العمل وقد عُمِّروا مقدار ما يتمكنون به من البحث والإدراك كما قال : « أَوَ لَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ » ولكن ذلك ما كفاهم ، فهم مهما طالت أعمارهم لايجديهم ذلك فتيلا ولا قطميرا .

الإيضاح

(وامتازوا اليوم أيها المجرمون) أى تفرقوا وادخلوا مساكنكم من النار ، فلم يبق لكم اجتماع بالمؤمنين أبدا ، ونحو الآية قوله : « وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ » وقوله : « وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ » وقوله : « احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ . مِنْ دُونِ اللهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ » .

ولما أمروا بالامتياز وشخصت منهم الأبصار وكلحت الوجوه وتنكست الرءوس قال سبحانه موبخا لهم :

(ألم أعهد إليكم يا بنى آدم ألا تعبدوا الشيطان) أى ألم أوصكم بما نصبت من الأدلة ومنحت من العقول ، و بعثت من الرسل ، وأنزلت من الكتب ، بيانا للطريق الموصل إلى النجاة — أن تتركوا طاعة الشيطان فيما يوسوس به إليكم من معصيتى ومخالفة أمرى .

ثم علل النهى عن عبادته بقوله :

(إنه لكم عدو مبين) أى إنه ظاهر العداوة لكم من جَرَاء عداوته لأبيكم آدم من قبل ، ولأنه يو بقكم فى مهاوى الردى ، و يوقعكم فى مزالق الهلاك .

ولما منع من عبادة الشيطان أمر بعبادته سبحانه فقال :

(وأن اعبدونى) وحدى وأطيعونى فيما أمرتكم به وانتهوا عما نهيتكم عنه .

ثم بين أن ما أمر به ونهى عنه طريق معبد واضح لالبس فيه ولا خفاء فقال :

(هذا صراط مستقيم) أى هذا الذى نهيتكم عنه من عبادة الشيطان ، وأمرتكم به من عبادة الرحمن ، هو الصراط المستقيم ، لكنكم سلكتم غيره فوقعتم فى مزالق الضلال ، وترديتم فى مهاوى الردى .

و بعد أن نبههم إلى أنهم نقضوا العهد و بخهم على عدم اتعاظهم بغيرهم ممن أوقعهم الشيطان فى المهالك ، وكانت عاقبتهم ما يرون من سوء المنقلب فى الدنيا والآخرة فقال :

(ولقد أضل منكم جبلا كثيرا) أى ولقد صد الشيطان منكم خلقا كثيرا عن طاعتى و إفرادى بالألوهية فاتخذوا من دونى آلهة يعبدونها .

ثم زاد فى توبيخهم والإنكار عليهم فقال :

(أفلم تكونوا تعقلون ؟) أى فلم يكن لكم عقل فترتدعوا عن مثل ما كانوا عليه كيلا يحيق بكم من العذاب مثل ما حاق بهم .

و بعد أن أُنِّبوا ووُبِّخوا بما سلف خوطبوا بما يزيدهم حسرة وألما فقيل لهم :

(هذه جهنم التى كنتم توعدون) أى هذه هى جهنم التى كنتم توعدون بها على ألسنة الرسل والمبلغين عنهم إذا أنتم اتبعتم وساوس الشيطان ، وعصيتم الرحمن ، وعبدتم من دونه الأصنام والأوثان ، واجترحتم الفسوق والعصيان .

ثم أمرهم أمر إهانة وتحقير لهم بقوله :

(اصلوها اليوم بما كنتم تكفرون) أى احترقوا بها اليوم وقاسوا حرها الشديد بسبب جحودكم بها فى الدنيا وتكذيبكم إياها بعد أن نبهتم فلم تنتبهوا ، وأُوقظتم فلم تستيقظوا .

وخلاصة ذلك — إنه قد ذكر ما يوجب الحزن والأسى من وجوه ثلاثة :

(١) إنه أمرهم أمر تنكيل وإهانة نحو قوله لفرعون : « ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ » .

(٢) إنه ذكر لفظ (اليوم) الذى يدل على أن العذاب حاضر وأن لذاتهم قد مضت و بقى العذاب اليوم .

(٣) إن قوله بما كنتم تكفرون يومئ إلى أن هناك نعمة قد كانت فكفروا بها، وحياء الكفور من المنعم أشد ألما وأعظم مضاضة كما قيل :

أليس بكاف لذى همة حياء المسىء من المحسن

ثم بين أنهم فى هذا اليوم لايستطيعون دفاعا عن أنفسهم وتشهد عليهم أيديهم وأرجلهم فقال :

(اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون) أى ففى هذا اليوم ينكر الكافرون مااجترحوا فى الدنيا من الشرور والآثام و يحلفون أنهم ما فعلوا كما حكى الله عنهم من قولهم : « وَاللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ » فيختم على أفواههم فلا تنطق بينت شفة ، و يستنطق جوارحهم بما اجترمت من الفسوق والعصيان الذى لم يتوبوا عنه .

ونسب الكلام إلى الأيدى والشهادة إلى الأرجل، من قِبَل أن الأولى لها مزيد اختصاص بمباشرة الأعمال ، ومن ثم كثر نسبة العمل إليها فى نحو قوله : « يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَاقَدَّمَتْ يَدَاهُ » وقوله : « وَمَا عَمِلَتْ أَيْدِيهِمْ» وقوله : « بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى النَّاسِ » . ولا كذلك الثانية فكانت الشهادة بها أنسب ، إذ هى كالأجنبية منها .

وجاء فى الخبر : «يقول العبد يوم القيامة إنى لا أجد علىَّ شاهدا إلا من نفسى، فيختم الله على فيه و يقول لأركانه : انطقى ، فتنطق بأعماله ثم يخلى بينه و بين الكلام فيقول بعدا لكنّ وسُحْقاً ، فعنكن كنت أناضل » .

وإذا كان المرء فى دار الدنيا المملوءة أكاذيب ونفاقاً يخجل فيحمر وجهه، ويوجل فيصفرُّ وجهه ويتخذ القضاة من ذلك أدلة على إدانة المتهم . كما نقصّ آثار أقدام اللصوص والجناة ونتبعهم فى السهل والجبل حتى إذا عثرنا عليهم قدمناهم للقضاة بشهادة هذه الآثار التى لا اشتباه فيها ، كذلك نختم بأصابع المجرمين على الورق (البصمة) فلا تشاكل يدٌ يداً ، مما يجعل لذلك أجلّ قيمة فى خدمة العدالة .

وإذا كان هذا فى عالمنا الجسمانى فما بالك بعالم الأرواح التى يكون فيها لكل ذنب أو عمل حسن أثر فى النفوس يولد فيها الخير أو الشر، حتى إذا انفصلت الأرواح من الأجساد ظهر ما انطبع فيها من خير أو شر؟ وإلى هذا يشير قوله تعالى ذاكراً حال الحساب يوم القيامة : « اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً » فالنفس إذاً هى الكتاب الذى لا غش فيه ولا كذب ، فإذا صمت اللسان نطقت الجوارح كما تنطق آثارها اليوم ، أى تدل على المراد أفصح دلالة ، وترشد إلى المقصود أيما إرشاد ، وهذا هو الذى ينبغى أن يفهم فى الآية الكريمة .

ثم بين سبحانه أنه قادر على إذهاب الأبصار ، كما هو قادر على إذهاب البصائر فقال :

(ولو نشاء لطمسنا على أعينهم فاستبقوا الصراط فأنى يبصرون) أى ولو نشاء لعاقبناهم على كفرهم فطمسنا على أعينهم فصيرناهم عمياً لا يبصرون طريقاً ، ولا يهتدون إلى شىء .

وإجمال المراد : لو شئنا لأذهبنا أحداقهم ، فلو أرادوا الاستباق وسلوك الطريق الذى اعتادوا سلوكه لم يستطيعوا ذلك .

ثم زاد فى تهديدهم وتوبيخهم وبيان أنه قادر على منعهم من الحركة فقال:

(ولو نشاء لمسخناهم على مكانتهم فما استطاعوا مضيًّا ولا يرجعون) أى ولو أردنا لحوّلناهم عن تلك الحال إلى ما هو أقبح منها ، فجعلناهم قردة وخنازير وهم

فى مساكنهم التى يجترحون فيها السيئات ، فلايقدرون على ذهاب ولا مجىء ولا غدوّ ولا رواح .

ثم شرع يقطع معذرة لهم ربما احتجوا بها وهى قولهم : إنهم لو عُمِّروا لأحسنوا العمل فقال :

(ومن نعمره ننكسه فى الخلق) أى إنه كلما طال عمر المرء رد إلى الضعف بعد القوة والعجز بعد النشاط .

(أفلا يعقلون ؟) أنهم كلما تقدمت بهم السن ضعفوا وعجزوا عن العمل ، فلو عُمِّروا أكثر مما عمروا ما ازدادوا إلا ضعفاً ، فلا يستطيعون أن يصلحوا ما أفسدوا فى شبابهم ، وقد عمرناهم مقدار مايتمكنون من البحث والتفكير والتروّى فى عواقب الأمور ومصايرها ، فلم يفعلوا ، وجاءتهم النذر فلم يهتدوا ، فمهما طالت أعمارهم فلن يفيدهم ذلك ، ولن يصلح من حالهم قليلا ولا كثيرا .

وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِى لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ (٦٩) لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ (٧٠) .

شرح المفردات

وما ينبغى له : أى لايليق به ولا يصلح له ، ذكر : أى عظة من الله و إرشاد للثقلين ، حيًّا : أى حىّ القلب مستنير البصيرة ، يحق القول : أى يجب العذاب .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر أمر الوحدانية فى قوله : وأن اعبدونى هذا صراط مستقيم ، وذكر أمر البعث فى قوله : اصلوها اليوم — ذكر هنا الأصل الثالث ، وهو الرسالة فى هاتين الآيتين .

الإيضاح

(وما علمناه الشعر) الشعر : ضرب من ضروب الكلام ذو وزن خاص ينتهى كل بيت منه بحرف خاص يسمى : قافيـة ، وهو يسير مع العواطف والأهواء ، ولا يتبع ما يمليه العقل والمنطق الصحيح ؛ ومن ثم كان مستقرّ الأكاذيب والمبالغات فى الأهاجى والمدائح والتفاخر والتنافر ، فإذا غضب الشاعر أقذع فى القول وبالغ فى الذم وضرب بالحقيقة عُرْض الحائط ، ولا يرى فى ذلك ضيراً ، وإذا هو استُرْضِى بعد قليل رفع من هجاه إلى السّماكين وأدخله فى زمرة العظماء الشجعان أو الكرماء الأجواد إلى نحو هذا مما تراه فى شعر الهجائين المداحين حتى لقد بلغ الأمر بهم أن قالوا : (أعذب الشعر أكذبه) .

والقرآن الكريم آداب وأخلاق ، وحكم وأحكام ، وتشريع فيه سعادة البشر فى دنياهم وآخرتهم ، فرادى وجماعات ، فحاشى أن يكون شعراً ! أو أن يمتّ إليه بنسب .

فالمراد من نفى تعليمه الشعر نفى أن يكون القرآن شعراً ، لأن الله علمه القرآن وإذا لم يكن المعلّم شاعراً لم يكن القرآن شعرا البتة .

وهذا رد لقولهم : إن القرآن شعر وإن محمداً شاعر ، ومقصدهم بهذا أنه افتراء وتخيلات وأباطيل ، وليس وحياً من عند الله .

(وما ينبغى له) أى ولا يليق به الشعر ولا يصلح له ، لأنه مبنى كما علمت على الركون إلى الأهواء تبعاً لفائدة ترجى ، أو شفاء للنفس من ضغائن الصدور ، أو كبتاً لسَوْرة حقد أو حسد بحق أو باطل ، والشرائع والأحكام تنزه عن مثل هذا .

وما اتفق له عليه السلام دون قصد من نحو قوله يوم حنين وهو راكب بغلته البيضاء وأبو سفيان بن الحرث آخذ بزمامها :

أنا النبى لا كذب أنا ابن عبد المطلب

فلا يسمى شعراً ، لأن مثل هذا يقع فى الكلام المنثور ولا يسمى قائله شاعرا .

وقد صح « أن النبى صلى الله عليه وسلم أنشد :

ستبدى لك الأيام ما كنت جاهلا ويأتيك ما لم تزود بالأخبـــار

فقال أبو بكر رضى الله عنه : ليس هكذا يارسول الله ، فقال عليه الصلاة والسلام : إنى والله ما أنا بشاعر ولا ينبغى لى » .

وأخرج ابن سعد وابن أبى حاتم عن الحسن «أنه صلى الله عليه وسلم كان يتمثل بهذا البيت :

* كفى بالإسلام والشيب ناهياً للمرء *

فقال أبو بكر : أشهد أنك رسول الله ، ما علمك الشعر وما ينبغى لك» .

والخلاصة — إن الله تعالى كما جعل رسوله أميًّا لتكون الحجة أتم والبرهان على المشركين أقوم ، كذلك منعه قول الشعر حتى لا يكون لهم حجة فى أن يدّعوا عليه أن القرآن من المفتريات التى يتقولها والأباطيل التى ينمّقها ، وليس بوحى من عند ربه .

و بعد أن نفى عنه أنه شعر وتخيلات أثبت أنه مواعظ ونصائح فقال :

(إن هو إلا ذكر وقرآن مبين) أى وما القرآن إلا مواعظ من ربنا يرشد بها عباده إلى ما فيه نفعهم وهدايتهم فى معاشهم ومعادهم ، نزل من الملإ الأعلى ، وليس من كلام البشر ، فقد تحدى المخالفين أن يأتوا بمثله فما استطاعوا ، فلجئوا إلى السيف والسنان ، وتركوا المقاولة بالحجة والبرهان .

ثم ذكر من ينتفع به فقال :

(لينذر من كان حيًّا) أى لينتفع بنذارته من كان حىّ القلب مستنير البصيرة يعرف مواقع الهدى والرشاد ، فيسترشد بهديه ، وليس له من صوارف الهوى مايصدّه

عن اتباع الحق ، ولا من نوازع الاستكبار والإعراض ما يكون حائلا بينه وبين الهدى ، فهو يتواثب على الإقرار بالحق إذا لاح له بريق من نوره ، فتمتلئ جوانبه إشراقا وضياء ، ويخر له مذعنا مستسلما ، وكأنّ طائفا من السماء نزل عليه فأثلج صدره ، وألان قلبه ، فاطمأن له وركن إليه ، وذلك مَن رزقه الله التوفيق والهداية ؛ وكتب له الفوز والسعادة .

وبعدئذ بين عاقبة من أعرض عنه فقال :

(ويحق القول على الكافرين) أى وتجب كلمة العذاب على الكافرين به الذين هم كأنهم أموات خلوهم من النفوس الحساسة اليقظة التى من دأبها الإعراض والاستكبار عن اتباع الحق .

أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ (٧١) وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ (٧٢) وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ ، أَفَلَا يَشْكُرُونَ (٧٣) ؟

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه الأدلة الثلاثة على الترتيب : الوحدانية والحشر والرسالة ـ أعاد الكلام فى الوحدانية وذكر الدلائل عليها .

الإيضاح

(أو لم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاما فهم لها مالكون) أى أو لم يشاهد هؤلاء المشركون بالله الأصنام والأوثان : أنا خلقنا لهم بقدرتنا وإرادتنا بلا معين ولا ظهير — أنعاما من الإبل والبقر والغنم يصرفونها كما شاءوا بالقهر والغلبة

فهى ذليلة منقادة لهم ، فالجارية الصغيرة إن شاءت أناخت البازل الكبير ، وإن شاءت ساقته وصرّفته كما تريد كما قال العباس بن مرداس فى وصف الجمل :

وتضربه الوليدة بالهراوى فلا غيرٌ لديه ولا نكير

ثم ذكر منافعها فقال :

(وذللناها لهم فمنها ركوبهم ومنها يأكلون) أى وسخرنا لهم هذه الأنعام ، فمنها ما يركبون فى الأسفار ويحملون عليه الأثقال إلى سائر الجهات والأقطار ، ومنها ما ينحرون ، فيأكلون لحومها وينتفعون بدهنها .

(ولهم فيها منافع ومشارب) أى ولهم فيها منافع أخرى غير الركوب والأكل منها ، كالجلود والأصواف والأوبار والأشعار والحراثة وإدارة المنْجَنُون (الساقية) ولهم منها مشارب من ألبانها ونتاجها .

ثم حثهم على الشكر على هذه النعم وتوحيد صانعها فقال :

(أفلا يشكرون) نعمتى عليهم وإحسانى إليهم بطاعتى وإفرادى بالألوهية والعبادة وترك وسوسة الشيطان ، بعبادة الأصنام والأوثان ؟

وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنْصَرُونَ (٧٤) لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحْضَرُونَ (٧٥) فَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ ؛ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ (٧٦) .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه أنهم كفروا بأنعم الله عليهم وأنكروها — أردف ذلك ببيان أنهم زادوا فى ضلالهم ، وأقبلوا على عبادة من لا يضر ولا ينفع ، وتوقعوا منه

النصرة مع أنهم هم الناصرون لهم كما قال تعالى حاكيا عنهم « قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانْصُرُوا آلِهَتَكُمْ » والحقيقة أنها لاهى ناصرة ولا منصورة .

الإيضاح

(واتخذوا من دون الله آلهة لعلهم ينصرون) أى واتخذ هؤلاء المشركون من دون الله آلهة يعبدونهم طمعا فى نصرتهم ودفع العذاب عنهم وتقريبهم إلى الله زلفى.

ثم بين بطلان رأيهم وخيبة رجائهم وانعكاس تدبيرهم فقال :

(لايستطيعون نصرهم) أى لاتقدر هذه الآلهة على نصر عابديها ، فهى أضعف من ذلك وأحقر ، ولا تقدر على الاستنصار لأنفسها ، ولا الانتقام ممن أرادها بسوء ، لأنها جماد لاتسمع ولا تعقل .

(وهم لهم جند محضرون) أى والمشركون يغضبون للآلهة فى الدنيا، وهم لايسوقون إليهم خيرا ولا يدفعون عنهم ضرا .

والخلاصة — إن العابدين وهم المشركون كالجند لحمايتهم والذبّ عنهم فى الدنيا ، والمعبودون يوم القيامة لايستطيعون أن يقدموا لهم أقل معونة ، ولا يدفعون عنهم مضرة .

ثم سلّى رسوله عما يلقاه من قومه من الأذى بنحو قولهم : هو شاعر وهو ساحر وهو كاهن إلى نحو ذلك من مقالاتهم التى كانوا يجابهون بها الرسول إرادة تحقيره وإهانته فقال :

(فلا يحزنك قولهم) أى ولا يحزنك أيها الرسول قول هؤلاء المشركين من قومك : إنك شاعر وما جئتنا به شعر ، ولا تكذيبهم بآيات الله وجحودهم نبوتك .

ثم ذكر أنه سيجازيهم على ما يضمرون فى نفوسهم ويتفوهون به بألسنتهم فقال:

(إنا نعلم ما يسرون وما يعلنون) أى إنا نعلم أن الذى يدعوهم إلى قيل ذلك

إنما هو الحسد ، وأنهم يعتقدون أن الذى جئتهم به ليس بشعر ولا يشبه الشعر ، وأنك لست بكذاب .

والخلاصة — إنا نعلم ما يسرون من معرفتهم حقيقة ما تدعوهم إليه ، وما يعلنون من جحود ذلك بألسنتهم علانية ، وسنجزيهم وصفهم ونعاملهم بما يستحقون يوم يجدون جليل أعمالهم وحقيرها حاضرا لديهم .

أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ (٧٧) وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (٧٨) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ (٧٩) الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ (٨٠) أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ (٨١) إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٨٢) فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٨٣) .

شرح المفردات

أولم ير : أى أولم يعلم ، والخصيم : المبالغ فى الجدل والخصومة إلى أقصى الغاية ، وضرب لنا مثلا : أى وأورد فى شأننا قصة عجيبة هى فى غرابتها كالمثل ؛ إذ أنكر إحياءنا للعظام النخرة ، والرميم : كالرمة والرفات ، و بلى : كلمة جواب كنعم ؛ تأتى بعد كلام منفى ، أمره : أى شأنه فى الإيجاد ، والملكوت : الملك التام كالرحموت والرهبوت والجبروت ، والعرب تقول : جبروتى خير من رحموتى .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر فيما سلف الدلائل على عظيم قدرته ووجوب عبادته و بطلان إشراكهم به بعد أن عاينوا فيما بين أيديهم ما يوجب التوحيد والإقرار بالبعث — أردف ذلك بذكر حجة من أنفسهم دالة على قدرته تعالى ومبطلة لإنكارهم له ، ثم ذكر أن بعض خلقه استبعدوا البعث ونسوا بدء أمرهم وكيف خلقوا ، وقالوا : كيف ترجع الحياة إلى هذه العظام النخرة ؟ ، فأجابهم عن شبهتهم بأن الذى أنشأها أول مرة من العدم هو الذى يحييها ، وهو العليم بتفاصيل أجزائها مهما وزعت وتفرقت ، ثم ذكر لهم دليلا آخر يرفع هذا الاستبعاد ، وهو أن من قدر على إحداث النار من الشجر الأخضر مع ما فيه من الماء ، قادر على إعادة الحياة إلى ما كان غضًّا طريا ثم يبس و بلى ، ثم ذكر ما هو أعظم من خلق الإنسان وفيه الدليل على قدرته ، وهو خلق السموات والأرض ، ثم أعقب ذلك بما هو كالنتيجة لما سلف ، وفيه بطلان لإنكارهم ، فأبان أن كل شىء هيّن عليه ، فما هو إلا بقول (كن فيكون) تنزه ربنا ذو الملك والملكوت عن كل ما يقول المشركون ، فإليه يرجع جميع الخلق للحساب والجزاء .

قال مجاهد وعكرمة وعروة بن الزبير وقتادة : «جاء أبىّ بن خلف إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وفى يده عظم رميم وهو يفتّه بيده ويذروه فى الهواء ويقول : أتزعم يا محمد أن الله يبعث هذا ؟ قال صلى الله عليه وسلم « نعم يميتك الله ثم يبعثك ثم يحشرك إلى النار ، ونزلت هذه الآيات من سورة يس (أو لم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة) إلى آخرهن » .

الإيضاح

(أو لم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين) أى أو لا يستدل من أنكر البعث بسهولة المبدإ على سهولة الإعادة ، فإن من بدأ خلق الإنسان من

سلالة من ماء مهين ، ثم جعله بشرا سويا يخاصم ربه فيما قال: إنى فاعل ، فيقول: من يحيى العظام وهى رميم ؟ إنكارا منه لقدرته على إحيائها — قادر على إعادته بعد موته وحسابه وجزائه على أعماله .

ونحو الآية قوله : « أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ . فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ . إِلَى قَدَرٍ مَعْلُومٍ » وقوله : « إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ » أى من نطفة من أخلاط متفرقة .

والخلاصة — إنه تعالى خلق للإنسان ما خلق من النعم ليشكر فكفر وجحد المنعم والنعم ، وخلقه من نطفة قَذِرَة مَذِرة ليكون متذللا ، فطغى وبغى وتجبر وخاصم ربه واستبعد البعث والإعادة .

(وضرب لنا مثلا ونسى خلقه قال : من يحيى العظام وهى رميم ؟) أى وذكر أمرا عجيبا ينفى به قدرتنا على إحياء الخلق فقال : من يحيى العظام الرميم ؟ ونسى خلقنا له ، أفلم يكن نطفة فجعلناه خلقا سويا ناطقا ؟ ولا شك أن من فعل ذلك لايعجزه أن يعيد الأموات أحياء ، والعظام الرميم بشرًا كهيئتهم التى كانوا عليها قبل الفناء .

وإجمال ذلك — إن بعض المشركين استبعدوا إعادة الله ذى القدرة العظيمة التى خلقت السموات والأرض للأجساد والعظام الرميمة ، ونسوا أنفسهم وأنه تعالى خلقهم من العدم ، أفهذا مما يُسْتَبْعَد ويُجحد ؟

ونحو الآية حكاية عن المشركين : « وَقَالُوا أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ؟ » وقوله أيضا على طريق الحكاية « أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ . أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ » .

وقد أمر الله رسوله أن يجيبهم عن استبعادهم ويبكّتهم بتذكيرهم بما نسوه من حقيقة أمرهم وخلقهم من العدم فقال :

(قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم) أى قل أيها الرسول لهذا المشرك القائل لك : من يحيى العظام وهى رميم ؟ يحييها الذى ابتدع خلقها أول مرة ولم تكن شيئا وهو العليم بالعظام ، وأين تفرقت فى سائر أقطار الأرض ؟ وأين ذهبت ؟ ، لايخفى عليه شىء من أمر خلقه ، فهو يعيده على النمط السابق والأوضاع التى كان عليها مع قواه السالفة .

وكان الفيلسوف الإسلامى الملقب بالفارابى يقول : وددت لو أن إرسطو وقف على القياس الجلىّ فى قوله تعالى : (قل يحييها الذى أنشأها) الآية ، إذ تفصيله: الله أنشأ العظام وأحياها أول مرة ، وكل من أنشأ شيئا أوّلا قادر على إنشائه و إحيائه ثانيا — ونتيجة هذا — الله قادر على إنشائها و إحيائها بقواها ثانيا اه .

ولا شك أن الفارابى إنما يريد القياس الذى يفهمه اليونانى باصطلاحه المنطق ، و إلا ففى الآية قياس فهمه العربى على أسلوبه فى التخاطب الذى يجرى عليه و يقتنع به ، ولكل أمة أساليب فى الإقناع والحجاج تسير عليها وتسلك سبيلها ، وقد اقتنع الكثير من العرب بما جاء به فى هذا ، ومن جحد فإنما فعل ذلك عنادا واستكبارا .

ثم ذكر دليلا ثانيا يرفع استبعادهم و يبطل إنكارهم فقال :

(الذى جعل لكم من الشجر الأخضر نارا فإذا أنتم منه توقدون) أى هو الذى بدأ خلق الشجر من ماء حتى صار أخضر ناضرا ثم أعاده إلى أن صار حطبا يابسا توقد به النار، ومن فعل ذلك فهو قادر على ما يريد لايمنعه شىء ، إذ من أحدث النار فى الشجر الأخضر على ما فيه من المائية المضادة للاحتراق ، فهو أقدر على إعادة الغضاضة إلى ما كان غضًّا فيبس و بلى .

ثم زكى ذلك بدليل ثالث على قدرته أعجب من سابقيه فقال :

(أو ليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم ؟ بلى وهو الخلاق العليم) يقول تعالى منبها هذا الكافر الذى قال : من يحيى العظام وهى رميم ؟

إلى خطأ قوله وعظيم جهله بأن خلْق مثلكم من العظام الرميم - ليس بأعظم من خلق السموات والأرض ، وإذا لم يتعذر عليه خلق ما هو أعظم منكم ، فكيف يتعذر عليه إحياء العظام بعد ما قد رمّت و بليت ؟.

والخلاصة — إنه تعالى نبّه إلى عظيم قدرته على خلق السموات السبع بما فيها من الكواكب السيارة والثوابت والأرضين السبع وما فيها من جبال ورمال وقفار وما بين ذلك ، و إلى أن الذى قدر على إيجاد هذه العوالم العظيمة - قادر على إعادة الأجساد بعد البلى .

ونحو الآية قوله : « لَخَلْقُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ » وقوله : « أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللهَ الَّذِى خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِىَ الْمَوْتَى ؟ بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ » .

ثم ذكر ما هو كالنتيجة لما سلف من تقرير واسع قدرته و إثبات عظيم سلطانه فقال :

(إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون) أى إنما شأنه تعالى فى إيجاد الأشياء أن يقول لما يريد إيجاده : تكوّن فيتكوّن و يحدث فورا بلا تأخير .

وهذا ولا شك تمثيل لتأثير قدرته فيما يريد ، بأمر المطاع لمن يطيعه فى حصول المأمور به بلا توقف ولا افتقار إلى مزاولة عمل ولا استعمال آلة .

و بعد أن أثبت لنفسه القدرة التامة والسلطة العامة ، نزّه نفسه عما وصفوه به ، وعجّب السامعين مما قالوه فقال :

(فسبحان الذى بيده ملكوت كل شىء) أى تنزه ربنا الحى القيوم الذى بيده مقاليد السموات والأرض - عن كل سوء .

(و إليه ترجعون) أى و إليه يرجع العباد يوم المعاد ، فيجازى كل عامل بما عمل ، وهو العادل المنعم المتفضل .

ونحو الآية قوله : « تَبَارَكَ الَّذِى بِيَدِهِ الْمُلْكُ » وقوله : « قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ » .

والله يقول الحق وهو يهدى السبيل ، نسألك يا ذا الجلال والإكرام أن تنير قلوبنا بالتبصر فى فهم كتابك ، كما أنرت به قلوب عبادك الأبرار ، وأنبيائك الأخيار.

مقاصد سورة يس

(١) بيان أن محمدا صلى الله عليه وسلم رسول من عند الله حقا ، وأنه نذير للأميين وغيرهم .

(٢) المنذرون من النبى صلى الله عليه وسلم صنفان: صنف ميئوس من صلاحه، وآخر قد سعى لفلاحه .

(٣) أعمال الفريقين تحصى عليهم ، فتحفظ أخبارهم ، وتكتب آثارهم.

(٤) ضرب المثل لهم بأهل أنطاكية ، إذ كذبوا الناصح لهم وقتلوه فدخلوا النار ودخل الجنة بما قدم من إيمان وعمل صالح وهداية و إرشاد .

(٥) الدليل الطبيعى والعقلى على البعث .

(٦) تبيان قدرة الله ووحدانيته وعلمه ورحمته الشاملة .

(٧) جزاء الجاحدين على كفرانهم أنعُم الله عليهم وسرعة أخذهم وندمهم حين معاينة العذاب .

(٨) الجنة ونعيمها وما أعد للمؤمنين فيها .

(٩) توبيخ الكافرين على اتباعهم همزات الشياطين .

(١٠) قدرته تعالى على مسخهم فى الدنيا وطمس أعينهم .

(١١) الانتفاع بالأنعام فى المأكل والمشرب والملبس .

(١٢) إثبات البعث بما أقامه من أدلة فى الآفاق والأنفس .